(٩)
السيدة زينب فى قصر الخلافة

أرسل عبيد الله بن زياد السيدة زينب وأخواتها وأقاربها إلى يزيد بن معاوية فى دمشق ليرى فيهم رأيه.. كما أرسل رأس الإمام الحسين له كدليل على وفائه وحرصه على إرضاء يزيد بن معاوية.

والذين قرأوا ما كتب عن يزيد بن معاوية، وحاولوا أن يعرفوا شخصيته، بعيداً عن التأثيرات السياسية المذهبية التى كان يرى من خلالها.. نرى شخصية ذكية وعقلية متفتحة، تأثر بوالده معاوية بن أبى سفيان فى ذكائه وصبره ودهائه.

لم يكن يزيد ساذجًا..

ولم يكن من الذين يأخذون الأمور باستخفاف بل كان كما يقول عنه الرواة متقد الذهن، وإن كان فى أول أمره بالخلافة، وفى زمن أبيه.. مستهتراً يحب الخمر.. واللعب.. واللهو.. إلا أنه عندما ولى الخلافة أخذ الأمور بمأخذ الجد.. بدليل أن الفتوحات فى عهده واصلت تقدمها سواء فى الشمال الإفريقى حيث وصل قائدة عقبة بن نافع زحفه فى الشمال الأفريقى حتى شواطئ الأطلنطى، وهو المشهور عنه قوله عندما وصلت خيوله إلى شواطئ الأطلنطى، أن خاض بحصانه مياه المحيط، حتى بلغت المياه صدره، ورفع بصره إلى السماء وقال:

«اللهم إنى أشهدك أن لا مجاز للخيول فى هذا الماء، ولو وجدت مجازاً لجزت إلى الغرب فى سبيل الله».

كما عبرت جيوشه أسيا الوسطى وتوغلت فى بلاد ما وراء النهر عندما عبرت نهر جيحون.

ويزيد نفسه أرسله والده معاوية على رأس جيش لمحاصرة القسطنطينية سنة (٤٩ ـ ٥٠هـ).

وكانت أم يزيد «ميسون بنت محدل».. بدوية شاعرة، وعندما تزوجت معاوية جرفها الحنين إلى الصحراء.. حيث الخيام.. وامتداد الصحراء.. فقد كان يستهويها كشاعرة جمال الطبيعة، وسحر الوجود.

وسمعها ذات يوم زوجها وهى تقول شعراً تعبر فيه عن خبايا نفسها:

لبيت تخفـــق الأرواح فيه
أحـــب إلىّ من قصـــر منيف
وأكل كسيرة من كسر بيتى
أحب إلىّ من أكل الصنـوف
وأصوات الرياح بـكل فج
أحب إلىّ من نقر الدفـــوف

ولبس عباءة وتقـر عينى

أحب إلىّ من لبس الشفوف

وكلب ينبح الطراق حولى

أحب إلىّ من قـط ألـوف

وبكر يتبع الأظعان صعب

أحـب إلـىّ من بغل زفوف

وخرق من بنى عمى ضعيف

أحب إلىّ من علـج عنيـف

والعلج العنيف هو الحمار الوحشى السمين.

ويقول الرواة أن معاوية عند سمع هذه الأبيات قال:

ما رضيت ابنة محدل حتى جعلتنى علجا عنيفا.. وعندما طلقها معاوية قال البندارى فى خزانة الأدب قال لها:

ـ كنت قَبْنتِ.

فأجابته:

ـ ما سررنا إذ كنا، ولا أسفنا إذ بنا.

ويزيد ولد فى دمشق عام ٢٦ هـ، ونشأ فى جو ملئ

بالرفاهية.. يطلب فتجاب كل طلباته، وأراد والده أن ينشئه نشأة صحيحة فأرسله إلى حيث أخواله (بنى كلب) ليعيش طفولته فى البادية فاستقام لسانه، واتسعت مداركه، بجانب تأثره الكبير بلا شك بوالده داهية العرب الشهير.

* * *

ومن هنا يحتار الباحث وهو يقرأ أحداث كربلاء وما تليها من أحداث.

فبعض الرواه يصورون هذه الأحداث وكأن يزيد لا علم له بها.. فلا أمر بقتل الحسين، ولا علم بمسيرته من الحجاز إلى العراق.. وكأن الأمر كما صوره هؤلاء الناس أن الحسين انطلق إلى العراق، عندما جاءته رسائل ورسل أهل العراق للذهاب إليها لمبايعته.. وانطلق بآل بيته صوب العراق.. كل ذلك والخليفة لا يعرف!!

وهل يمكن لهذا الخليفة الذى كان كل همه، أو أهم ما يشغله هو أن يبايعه أعلام أبناء الصحابة وعلى رأسهم الحسين، ثم عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر.. والذى سبق لوالده الضغط عليهم لمبايعته، ثم أرسل يزيد بعد ذلك فى طلب هذه المبايعة.. فإذا ما تحرك الحسين، ومن خلفه العيون والجواسيس، متجهًا صوب العراق.. فإذا بالأخبار تنقطع عن الخليفة.. ولا

يعرف بما حدث، إلا عندما يرسل واليه عبيد الله بن زياد برأس الحسين، مع من يخبره بما جرى من أحداث؟!

فيستغرب يزيد لما حدث ويقول لمن جاءه بهذا الخبر:

« قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين.. لعن الله ابن سمية.. أما والله لو أنى صاحبه لعفوت عنه.. فرحم الله الحسين».

لا يعقل أن يحدث كل هذا الذى حدث.. من تحرك الحسين بأتباعه.. ثم انفضاض البيض عنه، وتخلى من استقدموه عن وعودهم.. ثم التصدى له بكل هذا الجيش بقيادة عمر بن سعد، من قبل عبيد الله بن زياد فى العراق.. ثم حدوث هذه المجزرة.. كل ذلك بدون علم يزيد!!

شى لا يمكن تصديقه.. لأنه ليس من المنطق ولا من المعقول أن يتصرف أحد ولاة الخليفة، وتطلق يده بالقتل، لشخصية بالغة الأهمية كشخصية الإمام الحسين.

فالإمام الحسين لم يكن مجرد رجل عادى من رعية الدولة الأموية. ولكن كان مطالب بالخلافة.. وكان له أتباعه الذين لا يحصون عددًا.

وكان أيضًا له محبوه باعتباره حفيد الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام وابن ابنته فاطمة الزهراء!

فمن المستحيل أن يجرى كل ما جرى على الساحة، بدون علم الخليفة، الذى تصوره بعض الروايات وكأنه لم يعرف شيئًا.. ولا دار بخلده ما جرى من أحداث.. وإنه فوجىء برأس الحسين، وبمن جاء إلى دمشق ليبشره بالقضاء على خصمه الحسين، والدليل فى يده.. رأس الحسين؟!!

وتقول الروايات أن يزيد عندما سمع من جاءه بهذا الخبر يقول: أنه أتى باللئام الفجرة.

قال يزيد: ما ولدت أم محفز شر وألأم!

* * *

وتقول هذه الروايات أيضًا: أنه عندما وضعت رءوس الحسين وأهل بيته أمام يزيد.

قال:

يفلقن هامـا من رجـال أعزة

علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وواضح من الحوار الذى دار بين يزيد، وبين السيدة زينب رضى الله عنها.. فى هذا الموقف الصعب التى وقفته بشجاعة منقطعة النظير، وصبر يفوق صبر البشر.. وهى ترد على طاغية مستبد تسنده هيبة الحكم وجور السلطان، وبين سيدة فقدت أعز

الناس.. نرى كم كان يزيد داهية.. سياسى بالغ الحنكة فى معالجته للأمر.. داهية بالغ الدهاء فى محاوراته وجداله.. يشتد عندما يرى فى الشدة ما يقوى حججه، ويلين عندما لا يجد هناك مفراً من اللين..

لم يكن موقفه فى حواره مع السيدة الجليلة حوار من يحاول أن يصل إلى العدل، وصولاً إلى الحقيقة، ولكن حوار من يريد أن يظهر شماتة وانتصاراً.

وكانت هى فى حوارها تستند إلى الإيمان العميق بربها، والإيمان بعدالة قضية الإمام الحسين، وأنه لم يخرج إلا لله وفى سبيل الله.. كما كانت شديدة الاعتزاز بنسبها الطاهر.. وصلتها بأعظم رسل الله..

ولم يكن يزيد يجهل هذا فهو يعرف نسبها من الرسول عليه الصلاة والسلام.. وهو لا يمكن أن ينسى وصية والده له بأنه لو ظفر بالحسين فلا ينس نسبه من رسول الله.. فلماذا نسى يزيد كل ذلك؟!

لماذا نكل أتباعه بالحسين كل هذا التنكيل الذى لا يقره دين ولا عرف ولا تقاليد؟!

وهل من التقاليد أو الدين التمثيل بجثث الناس حتى لو كانوا أعداء!

لقد سبق أن قامت جِدَّة (يزيد).. هند.. بالتمثيل بجثة سيد الشهداء حمزة فى معركة أحد.. ولقد غاظ ذلك الرسول عليه الصلاة والسلام، حتى أنه قال بأنه سيمثلن بسبعين من الأعداء ولكن القرآن الكريم نهاه عن ذلك عندما نزل قوله تعالى:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦].

وكان تعليق الرسول الكريم عندما نزلت هذه الآية الكريمة -نعم- نصبر.

الإسلام لم يبح المُثلة.. ولا أقرها.. ولا وافق عليها.. والتقاليد العرفية تأبى هذه الأعمال الوحشية.

فما بالهم فعلوها مع الحسين؟!

* * *

إن يزيد الذى كان يردد هذا البيت من الشعر:

يفلقن هامًا من رجـال أعـزة

علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فإذا كانت هامات الرجال الذين قتلوا عزيزة عليه حقيقة.. وكان هو يرى عقوقهم.. فأين العفو عند المقدرة؟!

وأين الشيم العربية الأصيلة؟!

وأين النخوة التى كان ينبغى أن يكون عليها خليفة يملك أمور الناس؟!

إن هذه السقطة التى وقع فيها الحكم الأموى فى خلافة يزيد، هى التى لوثت تاريخه كله، بل تاريخ بنى أمية كله.

فقد كان يزيد كما قلنا إنسانًا ليس بالخامل ولا قليل الحيلة، ولا ينقصه الذكاء. ومن الصعب أن يصدق عاقل أن ما وقع من أحداث كانت من وراء ظهره!!

وإلا لحاسب عبيد الله بن زياد أشد الحساب، وعاقبه أشد عقاب، لأنه أحدث كل هذه الفتنة دون الرجوع إليه!

فقد ظل ثأر الحسين مطلبًا من مطالب الذين يرفضون الظلم والطغيان، وترك جرحًا عميقًا فى قلوب كل المسلمين.. بدليل أن كل من اشترك فى هذه الجريمة لم ينج من العقاب، عندما قامت ثورة المختار.

* * *

إن يزيد قال وقد وضعوا أمامه رأس الحسين كما قلنا من قبل: أما والله يا حسين، لو أنا صاحبك ما قتلتك!

ومع ذلك.. عندما دخلت عليه السيدة زينب رضى الله عنها.. وآل بيتها.. نظر يزيد إلى علىّ وقال له:

يا علىّ.. أبوك الذى قطع رحمى، وجهل حقى، ونازعنى سلطانى.. فصنع الله به ما قد رأيت!

أسلوب أقرب إلى التشفى منه إلى أى شىء آخر فقال له على بن الحسين.

﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

وربما أعجبت هذه البلاغة يزيد فطلب من ابنه خالد أن يرد عليه!!

ولكن أنىّ له ذلك..

فقال له يزيد قل:

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾[الشورى: ٣٠].

* * *

ولم يعجب يزيد ما كانت عليه النساء من رث الثياب، وما أضافه عليهن طول السفر من جهد.. فقال:

قبح الله ابن مرجانة لو كان بينه وبينكم رحم أو قرابة ما فعل هذا بكم، ولا بعث بكم هكذا..؟!

جلست السيدة زينب وحولها أقاربها.. وأختها فاطمة بنت علىّ.. وإذا برجل من أهل الشام ينظر إلى فاطمة، ثم يطلب من يزيد أن يهبها له!!

وتشبثت فاطمة بثياب أختها السيدة زينب فإذا بالسيدة الجليلة تقول له:

- كذبت والله ولؤمت ما ذلك لك وله..

وهنا ينبرى لها يزيد، وقد فقد سيطرته على نفسه قائلاً:

- كذبت والله، إن ذلك لى، ولو شئت أن أفعله لفعلت!

ونسى يزيد فى غمرة غضبه أن فاطمة بنت علىّ ليست رقيقًا، إنها بنت الإمام.. ولكنه الغضب والهوس الذى أعماه..

وقاطعته السيدة زينب:

- كلا والله ما جعل الله ذلك لك إلا أن تخرج من ملتنا، وتدين بغير ديننا.

وأخرجه شجاعة بنت الزهراء عن وعيه، فإذا به يخرج عن الوقار الذى ينبغى أن يكون عليه الخليفة فقال لها:

- إياى تستقبلين بهذا.. إنما خرج من الدين أبوك وأخوك!

قالت له:

ـ بدين الله، ودين أبى ودين أخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك..

فقال لها:

ـ كذبت يا عدوة الله!

واستجمعت السيدة الفاضلة..سليلة البيت النبوى شجاعتها وهى تقول له موضحة له حقيقة نفسه.

ـ أنت أمير مسلط.. تشتم ظالمًا.. وتقهر بسلطانك.

وحاول يزيد أن يكبح جماح نفسه.. وأن يعيد إلى نفسه توازنها.. إنه يخاطب سيدة نشأت فى أعرق بيت، وتربت على أخلاق الرسول.. وهى لا تخشى أحدًا إلا الله.. ولا تخاف أحدًا إلا خالقها.. كما أنها فى موقف من أصعب المواقف التى تمر بها امرأة.. امرأة فقدت أخاها.. وأولاد أخيها.. وأقاربها.. وها هى اليوم تقف أمام الخليفة وبدلاً من أن يبرر لها ما حدث، وأنه سوف يعاقب الجناة.. ما دام يدعى أنه لم يكن يعرف بما يحدث، وإلا فما كان اتخذ من الحسين ومن معه هذا الموقف العنيد.. إذا به ينصب من نفسه قاضيًا.. ويجعل من ساحة قصره محكمة يحاكم فيها من تبقى حيا من آل محمد؟!

إن كلمة السيدة الجليلة زينب قد جعلته يفيق من وهم السلطة.. وقوة السلطان.

«أنت أمير مسلط.. تشتم ظالمًا.. وتقهر بسلطانك»..

كلمة أحس وقعها يزيد بما له من حس مرهف كشاعر.. وهو يعرف التقاليد العربية الأصلية فى معاملة النساء..

ومع ذلك فقد دفعه حقده الذى توارثه على بنى هاشم أن يثور هذه الثورة حتى على النساء من آل البيت.

لقد أيقظت هذه الكلمة ضميره.. أو خاطبت منطقة حساسة فى نفسه.. فإذا به يفيق.. وإذا به يحاول أن يطفئ جذوة الغضب فى نفسه.. ويذهبن إلى داره.. تمهيدًا أن يرجعن معززين مكرمين إلى المدينة.

وعندما انتهت أيام الضيافة.. الذى أحسن فيها يزيد الضيافة وخرج آل البيت متوجهين إلى المدينة، فى حراسة أحد جنود الشام.. مع تزويدهم بكل ما يحتاجونه فى رحلة العودة.

قال يزيد وهو يودعهم لعلى بن الحسين:

«لعن الله ابن مرجانة أما والله لو أنى صاحبه (يقصد الإمام الحسين) ما سألنى خصلة أبدًا إلا أعطيته إياها. ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت، ولو بهلاك بعض ولدى.. ولكن الله قضى ما رأيت» !!

ورجع الركب الحزين إلى المدينة..

إلى مدينة رسول الله..!.

وحاولت السيدة زينب وأختها فاطمة أن تعطى الذى أحسن صحبتهم وهما فى طريقهما إلى المدينة بعض حليهما.. رفض الرجل قائلاً أنه ما فعل ما فعل إلا حبًا للرسول وآل بيته.

* * *

رجع الموكب الحزين إلى المدينة..

ولكن أحداث كربلاء ظلت عالقة فى أذهانهم، وأذهان ما تلى ذلك من أجيال.

وما زلنا نقرأ عنها فتقشعر منا الجلود.. وترسم العديد من علامات الاستفهام حول ما جرى.. ولا جواب.. بل إن الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز قال عن هذا اليوم المشئوم.

«لو كنت من قتلة الحسين، وغفر الله لى، وأدخلنى الجنة. لما دخلتها حياءً من رسول الله ﷺ».

* * *